مقدمة

شعار: «إنني لا أستطيع إلا أن أقرر ـ بصفتي طبيباً ـ أن الإنسانية غارقة في أزمة رهيبة».

(فريدريش ديرنمات NZZ بتاريخ ٦/ ٤/ ١٩٩٠)

لقد تمكنت الألفية الجديدة منا؛ فبعد الاحتفالات والغبطة وكل ما صاحب قدوم الألفية من إثارة، وجدنا أنفسنا نواجه حياتنا اليومية المعتادة في اليوم الأول من يناير عام ٢٠٠٠ . ألم يحدث أي شيء؟ هل كانت مشكلة الصفرين في الحاسبات الآلية هي مشكلتنا الوحيدة؟ ألا تعاني جميع الأنظمة المسيطرة على حياتنا ومجتماعتنا من الأزمات؟ هل المستقبل هو ما كان يوماً ما؟

لم يكن العالم يفتقر إلى مؤشرات دالة على الأزمة التي تعاني منها مجتمعاته كافة ونحن على أعتاب ألفية جديدة، هذه المؤشرات التي ساهمت وسائل الإعلام المختلفة في تأكيدها وتضخيمها حتى أصبحت بمثابة رعب هستيري من نهاية العالم وفناء الإنسان، وتخَوُّف من الألفية الجديدة، وتأهب لما ستأتي به هذه الألفية من شرور.

ولكن سبقت هذه المخاوف بسنوات طويلة حالة غريبة انتابت المجتمعات الغربية، هي حالة اللامبالاة حيال الكوارث المتوقعة، هذه الحالة من اللامبالاة ترجع إلى شعور بالإحباط والانهزامية وليس بالتفاؤل.

لقد استبدل العالم حالة جديدة من الاسترخاء بحالة من الذعر غيرالمعقولة من نهاية العالم المرتقبة ـ والتي كانت حتى وقت قريب ينفرد بالتحذير منها أصحاب الثقافة الخضراء، أي أنصار البيئة.

فمن ذا الذي انتابته مخاوف ليلة رأس السنة لعام ١٩٩٩ مع انتظار قدوم أول أيام عام ٢٠٠٠ مثل: استمرار سريان قانون الطوارئ، واحتمال وقوع حرب نووية بين القوى النووية، والتدمير الهائل للغابات وموت كثير من أشجارها، وثقب الأوزون وتأثيره على التغيرات المناخية، وتكرار مأساة تشيرنوبل، وزيادة درجة حرارة الأرض، والإنسان الزجاجي، وأمراض مثل: الإيدز وجنون البقر، واشتراك قوات الدفاع الاتحادية في معارك حربية.

لقد واكب خفوت رمانسية أنصار البيئة تضاؤل المخاوف على هذه البيئة وخمول سياسي: لقد أصبح المأزق الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي ـ هذا إن وجد الأخير ـ كيف يكون الأمر في ألمانيا على غير هذا النحو؟ إنها أزمة مريحة تتناسب مع تناول البيرة والخمور.

لقد استبعد هذا المنتج الواعد بإمكانات استخدام هائلة «حالة ترقب لنهاية العام» قبل أن يطرح في الأسواق.

لم يتم احتفال المسلمين بالألفية الجديدة بتناول الخمور، ولكنه اتسم بهدوء أكثر عما حدث في الغرب. فلقد صادف قدوم الألفية الثالثة أن يكون هذا في وسط العام ١٤٢٠ للتقويم الهجري [(١)].

(١) لقد انطلق المسلمون في تقويمهم من عام هجرة الرسول من مكة إلى المدينة (١٠-٢٢ ستمبر ٦٢٢) بناء علي اقتراح الخليفة الثاني عمر .

ولقد صارت بداية أول عام هجري ـ وهو سنة قمرية ـ يوم ٦ يوليو عام ٦٢٢ بأثر رجعي.

(انظر G.S.P Treemann - Grenville: The Islamic and Christian Calenders AD 622-2222 (A11 1 -1650) Granet: Reading (UK) 1995. p.4. (التقويم الإسلامي والتقويم المسيحي)

كما أن قليلاً من المسلمين يهتمون بأسرار الأرقام، ولا يفترض أصلاً أن يكون لقدوم ألفية جديدة تأثير بالغ على المسلمين، حيث إن الساعة يمكن أن تقوم في أي وقت، أي أن ينتهي العالم في أي لحظة [٢].

كما أن كتابة التاريخ الإسلامي تهتم بتسمية كل قرن باسم شخصية كان لها تأثيرها البالغ في هذا القرن بوصفه مجدداً؛ فأطلق اسم الفيلسوف أبي حامد الغزالي (توفي عام ٥٠٥ هـ ـ ١١١١ م) على القرن الخامس الهجري. وحمل القرن الثامن اسم الفقيه ابن تيمية (توفي ٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٨م)، وسمي القرن الثاني عشر بقرن شاه ولي الله، المصلح الهندي (توفي ١١٧٦هـ ـ ١٧٦٣م)، وكذلك اسم محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية في السعودية (توفي ١١٨٧هـ ـ ١٧٨٧م).

وعرف القرن الرابع عشر بقرن الشيخ محمد عبده المجدد المصري (توفي ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م).

لقد تقبل المتصوف الهندي أحمد سيرهند (توفي ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٤م) عضو الطريقة النقشبندية في حياته، أن يحمل اللقب الشرفي غير الرسمي «مجدد الألف الهجري الثاني» [٣].

---

(٢) القرآن الكريم: الآية ٦٣ من سورة الأحزاب، الآية ١٨ من سورة الشورى، الآيات ٤٢-٤٦ من سورة النازعات.

(٣) لقد قام بدور الوسيط بين الفرق الصوفية المتطرفة وبين من يرفضونها على أساس المذهب الحنبلي .. انظر عبد الحق أنصاري، ونظرية الشيخ سيرهند عن وحدة الشهود في Islmic Studies 37/No. 2Islmbd 1993.

لا يمكننا أن نستنتج مَن شخصية المجدد المرتقبة؟ لقد قال الرسول محمد ﷺ وهو على يقين بأن المستقبل والغيب لا يعلمهما سوى الله ـ: «إنني مباه بكم الأمم يوم القيامة». «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها»[٤]. ولكن حذر محمد ﷺ أن كل جيل سيكون أقل تمسكاً بعقيدته من الجيل الذي سبقه[٥]. «لن يأتي زمان إلاَّ والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»[٦]. وسيكون من قرب علامات الساعة حدوث مثل هذه الظواهر: التي جاءت في أحاديث كثيرة منها: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا»[٧]. وسينقسم المسلمون على أنفسهم ويتشرذمون في مجموعات تفوق فُرقة اليهود والمسيحيين، كما جاء في الحديث:

«افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٨].

لم يشهد الدين الإسلامي فترة ازدهار وذروة تحقيق ذاته بعد انقضاء فترة توهجه الأولى وبداياته تحت القيادة الكاريزمية لرسوله محمد ﷺ إلا في لحظات نادرة. فحتى الفترة الذهبية، فترة الخلفاء الراشدين التي امتدت من عام ١١ إلى ٤٠ هـ (٦٣٢-٦٦١)، نلحظ فيها عند الفحص والدراسة الدقيقة ملامح يوتوبيا تعليمية، وهذا لا ينفي بطبيعة الحال عظمة وتوهج هذه الفترة.

(٤) البخاري جزء ٦ رقم ٥٠٤ / مسلم ٤٧١٥ ـ ٤٧٢٢ .
(٥) البخاري جزء ٨ رقم ٦٨٦ / النووي ٤٠٩ .
(٦) البخاري جزء ٩ رقم ١٨٨ / النووي ٩٢ .
(٧) البخاري جزء ١ رقم ٨٠ وجزء ٨ رقم ٨٠٠ .
(٨) [صحيح] أبو داود [٤٥٩٦].

على أي حال لم يشهد الإسلام تحولاً له وتحقيقاً لجوهره في الحياة العملية، لا في عهد الأمويين الذين حكموا من دمشق حتى عام ٧٥٠ [٩] ولا في ظل حكم العباسيين من بغداد والذي امتد حتى القرن الثالث عشر رغم كل ما فيه من ازدهار ثقافي وحضاري، ولا حتى في قمة ازدهار الحضارة الإسلامية بالأندلس قبل حلول عام ١٤٩٢ [١٠].

بالرغم من أن الإسبان لا يزالون إلى يومنا هذا يصيحون «الله» عندما يقولون (Olé) «أليه».

ينطلق المسلمون اليوم من معرفة مفادها أن العلم والمعرفة لا ينبنيان فقط على أعمال السلف، ولكنهما يشهدان إضافة وزيادة، حتى إن بعض المسلمين يمكنهم ـ عن حق ـ أن يدَّعوا أن معرفتهم بتراث الإسلام وبالقرآن وتفوق معرفة أسلافهم [١١] ولذلك فهم يتعلمون بكل جدية، خصوصاً أن القرآن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ لأنهم خير أمة أخرجت للناس [١٢]، وكذلك عندما يخاطبهم القرآن قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [١٣].

---

(٩) يتشكك بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين فيما نسب للأمويين من اتهامات بالانحراف عن الإسلام ومخالفة الكثير من قواعده في الحكم، فهل حدث هذا فعلاً، أم أن هذا فعلاً، أم أن هذه الاتهامات ألصقت بهم بفضل الدعاية المضادة لهم والتي أشعلها وقادها العباسيون؟ (تلك المعارضة اقتصرت على ذكر موضوعات دينية لأسباب سياسية بطبيعة الحال).

(١٠) يوفر J.yyusi نظرة جيدة على الحضارة الأندلسية.

(١١) خذا على سبيل المثال الآية الثانية من سورة العلق. فلم يكن أوائل المسلمين يعلمون معنى العلق كما يعرفه المعاصرون اليوم.

(١٢) كما جاء في الآية ١١٠ من سورة آل عمران: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١٣) الآية ١١ من سورة الرعد.

ولكننا لا نستطيع أن نؤكد أن بعد انقضاء احتفالية رأس السنة أن مخاوف الجانبين ـ المسلم والغربي ـ تلاشت تماماً.

فلا نستطيع أبداً أن نتفق مع ما تنبأ به فرانسيس فوكوياما بأن نهاية التاريخ تلوح من خلال سيادة الحضارة الغربية في صورة سيطرة نظام حكمها الليبرالي الديمقراطي، وما يحمله من قيم على العالم كافة[(١٤)].

لا نستطيع أن ننكر أن العولمة في المجالات المختلفة الاقتصادية ـ التكنولوجية ـ الإيديولوجية ـ الثقافية، قد أخذت تنمو وتؤتي ثمارها فيما تستهدفه من تحويل العالم إلى «قرية صغيرة».

لكن في الوقت نفسه بدأت الشكوك تنتاب الغرب فيما شعر به من زهو انتصار بعد انهيار الشيوعية، فهل كان الغرب محقّاً في إحساسه بهذا الانتصار.

أو لم يتضح بالدليل القاطع والبرهان البين أن القرن العشرين المنصرم، كان أكثر القرون دموية في تاريخ البشرية، بكل ما شهده من حروب عالمية مدمرة وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر، ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقي وغيرها من مآسي البشرية؟ وكل هذا يشهده العالم بعد مرور ٢٥٠ عاماً على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة ! وتتركز هذه الأعمال الوحشية المهينة للبشرية في أوروبا «المتحضرة» الزهو والفخر بعقلانيتها وإنسانيتها[(١٥)].

---

(١٤) فوكوياما (١٩٩٠).

(١٥) لقد شهد القرن العشرون سقوط أكثر من ثلاثين مليون قتيل من الشباب.

فهل تعاني المجتمعات الغربية من مرض ما؟ أم يتهددها خطر السقوط الأخلاقي كما حدث للبولشفية من قبل؟

لقد ثبت أن نظريات صمويل هنتنجتون بشأن صدام الحضارات الذي لا مفر منه خاصة بين الغرب والإسلام بكافة «أبعاده الدموية»، ما هي إلا صيحة إنذار ذات طبيعة دفاعية في المقام الأول (١٦).

ومنذ ذلك الوقت فإنك تستمع دائماً إلى نغمة تشاؤم لا سبيل إلى تجاهلها عندما يتم استدعاء ذكرى حضارات العالم التي امتنعت عما يسمى بالـ Socil Re - engineering، أي بإعادة الهيكلة الاجتماعية والاقتصادية(١٧).

لقد تكون في الغرب شعور بضرورة وجود قطبين في العالم، أي هنا وادي السيليكون ... وهنا مكة (١٨) كما لو أن العالم لم يتطور منذ أعلن إرنست رينان Ernest Renn يوم ٢٣ فبراير عام ١٨٦٢ في الكوليج دي فرانس Collège de Frnce «أن الإسلام هو النفي التام (النقيض) لأوروبا».

---

(١٦) هنتنجتون (١٩٩٣).

١٧) تعد تركيا أوضح الأمثلة. فلقد باءت محاولات أتاتورك ومن سار على نهجه في تحويل تركيا - قسراً - إلى قطعة من أوروبا بالفشل، نظراً للجذور الثقافية والتاريخية الإسلامية الراسخة - فبالرغم من جميع محاولات التغريب فإن الإسلام يؤدي اليوم دوراً أكبر مما كان يقوم به في الثلاثينيات في حياة مصطفى كمال.

(١٨) لا تزال النظرة المتشائمة لضرورة اختلاف الحضارات والثقافات بعضها عن بعض شائعة بين كثير من الدارسين والمهتمين بأفرع العلم المختلفة، ويؤدي هذا إلى مقولات مؤسفة وخاطئة، مثل: الحكم العام بأن البلاد الإسلامية غير قادرة على ممارسة الديمقواطية لطبيعتها، كما لا يمكن لهذه المجتمعات أن تتحول إلى مجتمعات مدنية تحمي حقوق الإنسان بسبب بنيتها الثقافية. ويعد بسام طيبي (١٩٩٤) أحد ممثلي هذه المقولة المهينة للمسلمين.

لن ينكر معاصر دارس للثقافات والسياسات أن تطور عالمه - أيًا كان موقعه الجغرافي - في القرن الحادي والعشرين سيتأثر - إن لم نقل سيكون محكوماً - بما سيشهده الإسلام وبما سيؤثر فيه. هل سيقوم العالم الإسلامي بتحديث نفسه؟ أم سيمتثل هذا العالم لأسلوب الحياة الأمريكي؟ أم أن هذا العالم سيستمر في رفضه للأسلوب الأمريكي في الوقت نفسه؟ هل سيستمر انتشار الإسلام في الغرب كما حدث في الثلث الأخير من القرن العشرين؟ هل سيتم هذا بالوسائل السلمية؟

ما النتائج المترتبة بالنسبة للغرب والمؤثرة فيه في حالة فشل العالم الإسلامي في القيام بعملية تجديد أخلاقي وإحياء لبنائه؟

وما النتائج المرتقبة في حالة نجاح العالم الإسلامي في أن ينهض من جديد وبالتالي يكتسب قوة جاذبة في الغرب؟ هل يمكن أن يصبح هذا الدين - وهو نظري وعقائدي - بالفعل ديناً يسود العالم.

هل يصبح الإسلام في هذه الحالة العلاج والشفاء الذي سينقذ الغرب من نفسه؟ وهل سيصبح الغرب قادراً على الاعتراف بالإسلام كدواء يصلح لشفائه، دواء يساعد الغرب على تخطي أزمته وإنقاذ حضارته؟

هذه هي خلفية هذا الكتاب، وهذه هي الأسئلة التي يطرحها هذا الكتاب محاولاً الإجابة عنها.

❁ ❁ ❁

يتضمن هذا الكتاب قائمة من المراجع، تبدو كبيرة جداً ومستفيضة، وستجد بها أغلب الكتاب الذين شاركوا في المناقشات حول الإسلام خاصة في العقود الثلاثة المنصرمة.

لم أستق هذه القائمة من الإنترنيت، ولكنني قرأتها كلمة كلمة. وساعدني تحقيق هذا عملي كناقد للكتب في مجلة The Muslim World Book Review الربع سنوية.

إنني أدين بالشكر لكتابين هما: «التناقضات الثقافية» - The Cultural Contradictions of Capitalism عام ١٩٧٦ لكاتبه Daniel Bell.

لقد شخص Daniel في هذا الكتاب مساوئ الحضارة الغربية وآلياتها المدمرة.

ومن الجدير بالذكر أن Daniel Bell كان أستاذاً للعلوم الاجتماعية بجامعة هارفرد.

أما الكتاب الثاني، فهو «صلاة الجنازة على روح السياسات الحديثة» - (Requiem for Modern Politics).

وهذا الكتاب يعد دراسة تحليلية دقيقة في غاية الذكاء لما تتضمنه المجتمعات الغربية من إمكانات رفض قاتلة، بسبب أيديولوجية التقدم والتطور التي تتبناها تلك المجتمعات.

والآراء التي يتضمنها هذا الكتاب ليست نتاج قراءات بالمفهوم الضيق، ولكنها قامت على خبرات معيشية أكثر منها على قراءات فقط.

وساعد على ذلك أنني، منذ اعتزالي من عملي كدبلوماسي في صيف عام ١٩٩٤، أتجول كمحاضر متنقلاً ـ دون فترات راحة تذكر ـ في الغرب والشرق، من هلسنكي إلى كوالامبور، من الرياض إلى لوس أنجيلوس، ومن الخرطوم إلى ليبزج في ألمانيا، حتى أساعد في شرح كل جانب للجانب الآخر، ولكي أقيم جسوراً من التفاهم بين الغرب والشرق، ولأساهم في إزالة مشاعر العداء التي يكنها كل طرف للطرف الآخر[١٩].

لقد ظهرت بعض هذه المحاضرات ونشرت في مجلات متخصصة عن الإسلام مثل: الإسلام (ميونخ)، دراسات إسلامية ـ Islamic Studies (إسلام آباد) The American Jounal of Islamic Social Sciences (Horndon, Virginia) الجريدة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية.

آفاق Horizons ـ (إنديانا بوليس). اقرأ Iqra ـ (سان جوزيه كاليفورنيا). وكذلك Hncounters (Markfield, Leceister).

لقد استخدمت مادة علمية من هذه المحاضرات، ولكنني لم أنشرها من قبل بشكلها المكتمل.

إن حجم الببليوجرافيا ليس هائلاً ولا يتضمن عناوين أجنبية كثيرة لكي إثير الإعجاب بي أو أعطي انطباعاً إيجابياً عني. ولكن لنعط معلومات يمكن للغير الاستفادة منها، ولكي تعبر عن:

---

(١٩) لقد قمت بإلقاء ١٣٩ محاضرة في الفترة ما بين منتصف عام ١٩٩٤ ومنتصف عام ١٩٩٩ تدور كلها حول موضوعات إسلامية في تسعة بلدان غربية وتسعة بلدان إسلامية، كما حضرت ٢٧ ندوة ومؤتمراً كان الإسلام فيها الموضوع الرئيس.

١ـ كثافة المناقشات الإسلامية بين المسلمين حول الموضوعات الكبرى في زماننا مثل: الديمقراطية، وحقوق الإنسان، ودور المرأة. وكيف أن هذه المناقشات تدور بلا أدنى وجود لمحرَّمات ـ (تابو) ـ مسبقة.

٢ـ زيادة سطوة الموضوع حتى أصبح يفرض نفسه على الدراسات الاجتماعية.

٣ـ الدور الجديد الذي تؤديه اللغة الإنجليزية حتى في الحوار الإسلامي، فلقد أصبح الإسلام الآن لفتان رئيستان: فاللغة الإنجليزية ينشر بها الآن عن الإسلام أكثر مما ينشر بالعربية؛ ولذلك أعتقد أن إلقاء نظرة على الببليوجرافيا يستحق هذا العناء.

إنني أقتصد في الإشارة إلى مقولات محددة، وأفضل ذكر أعمال بكاملها حتى يكون الكتاب مستساغاً في أثناء القراءة، ولا يتخذ شكلاً علمياً بحتاً.

كما أنني لم أرمز إلى قول «عليهم السلام» الذي نعقب به على ذكر الرسل موسى وعيسى ومحمد، كما يفعل المسلمون بما هو متعارف عليه في الكتب الإسلامية بـ (S) أو (pbuh) (Peace be upon Him)[٢٠]، فهذا أمر بديهي يفعله كل مسلم من تلقاء نفسه.

مراد فيلفريد هوفمان

إستنبول

الأول من يناير عام ٢٠٠٠

(٢٠) (S) تعني ﷺ و (pbuh) يعني عليه السلام.